أخبار الخليج

العدد (17655) - السنة الحادية والخمسون - السبت 11 صفر 1448هـ - 25 يوليو 2026م

حرب إيران واستراتيجية الأمن القومي الأمريكي

بقلم:
د. سنية الحسيني ○

تعكس استراتيجية الأمن القومي للرؤساء الأمريكيين بدقة توجهات سياساتهم الخارجية، التي تحكمها مصالح الولايات المتحدة غير المعلنة بالضرورة، لكن ليس من الصعب فهمها. وترتبط تلك الاستراتيجيات بتطورات سياسية في العالم وآليات تعامل الولايات المتحدة معها، بما يحقق الأهداف الأمريكية، حتى إن كان ذلك على حساب دول المنطقة، من بينها حلفاؤها.

على سبيل المثال، لم تخف استراتيجية الأمن القومي للرئيس جو بايدن عام 2022، التي جاءت بعد نشوب الحرب الروسية الأوكرانية بثمانية أشهر، توجهاته الداعمة لأوكرانيا والرادعة لروسيا، بالتركيز على دور الدعم الأوروبي للحرب، بشكل مختلف عن أقرانه. ففرقت استراتيجية بايدن بين الصين وروسيا، معتبرة الأولى منافساً بينما الثانية تهديداً.

واعتبرت الوثيقة أن الولايات المتحدة تقود رداً موحداً وحازماً على الغزو الروسي، وحشدت تحالفاً دولياً واسعاً لدعم أوكرانيا، عبر وسائل عديدة. في حين اعتبرت استراتيجية الأمن القومي للرئيس باراك أوباما عام 2015، التي جاءت بعد سيطرة روسيا على جزيرة القرم أنها تشكل عدواناً، لكن لم تعتبرها تهديداً. كما اعتبرت الوثيقة أن التدريبات والوجود العسكري في وسط أوروبا وشرقها يهدفان إلى ردع مزيد من العدوان الروسي. وفي الوقت نفسه، أبقت الوثيقة الباب مفتوحاً أمام تعاون أكبر مع روسيا في مجالات المصالح المشتركة.

أما الرئيس دونالد ترامب في استراتيجيتي الأمن القومي اللتين صدرتا خلال ولايتَيه عام 2017 و2025 –وكلاهما جاءت بعد غزو روسيا للقرم عام 2014، وغزوها لأوكرانيا عام –2022 فاعتبرتا روسيا في الأولى قوة تسعى لتغيير الوضع الراهن، بينما لم تضع الثانية روسيا في نفس درجة التهديد كما فعلت إدارة بايدن. واقترحت في الأولى آليات هجينة وعديدة لردعها، بينما ركزت في الثانية على إدارة العلاقة معها لإعادة الاستقرار. وفي جميع الحالات كان وصف إدارة بايدن لروسيا وآليات الردع أقوى وأكثر هجومية من جميع الوثائق الأخرى.

تعتبر وثيقة بايدن الأقوى من حيث قوة اللغة الموجهة ضد الاعتماد الأوروبي على روسيا تحديداً. ولم تخف تصريحات المسؤولين الأمريكيين الامتعاض من شراء الدول الأوروبية موارد الطاقة الروسية. قبل الغزو الروسي لأوكرانيا في 24 شباط عام 2022 بلغت نسبة واردات الاتحاد الأوروبي من النفط الخام من روسيا حوالي 28%، بينما لم يتجاوز ذلك 9% من الولايات المتحدة. كما استوردت أوروبا 52% من الفحم والوقود الأحفوري من روسيا، مقارنة بـ15% فقط من الولايات المتحدة. كما حصلت دول الاتحاد الأوروبي على أكثر من 44% من غازها من روسيا.

وشكلت روسيا خامس أكبر سوق لصادرات الاتحاد الأوروبي، وثالث أكبر مصدر لوارداته. ورغم ذلك عادلت تجارة السلع الأوروبية مع الولايات المتحدة حوالي 2.5 ضعف التجارة مع روسيا، وإن بقيت روسيا منافساً خطيراً للولايات المتحدة مع أقرب حلفائها. وقد تفسر تلك الأرقام والنسب مواقف لدول أوربية عظمى مثل ألمانيا وفرنسا بمساعيها لإيجاد حل سلمي بين روسيا وأوكرانيا.

لا يختلف الأمر كثيراً عند تتبع استراتيجيات الأمن القومي الأمريكي في منطقة الشرق الأوسط للإدارات الأربع الأخيرة، التي انتهت بالحرب الطاحنة ضد إيران، وتضررت من جرائها جميع دول المنطقة، ولا تزال تطوراتها وتبعاتها مجهولة. وتكشف استراتيجيتا ترامب للأمن القومي في العامين 2017 و2025، خلال ولايتيه، ترجيح انفجار الحرب مع إيران وتصاعدها في عهده مقارنة بأنداده الذين سبقوه. اشتركت استراتيجيات الإدارات الأربع بدءاً من عهد أوباما عام 2010 وصولاً إلى عهد ترامب عام 2025 باستراتيجية الالتفاف عن الشرق الأوسط نحو آسيا، والاعتماد على الحلفاء للدفاع عن أنفسهم وردع الأعداء.

ويظهر الاختلاف تجاه إيران، رغم اعتبارها من قبل جميع الإدارات مصدراً للاضطراب في المنطقة. دعت استراتيجية أوباما في عام 2010 إيران إلى الاندماج في المنطقة، بينما تطرقت استراتيجيته في عام 2015 إلى السعي مع الحلفاء لإبرام اتفاق مع إيران. وحبذت استراتيجية بايدن الدبلوماسية للتعامل معها، من دون استبعاد الخيارات الأخرى. وعلى النقيض تعامل ترامب تجاه إيران بشكل مختلف منذ ولايته الأولى، فاعتبر في الاستراتيجية الصادرة عام 2017 أن إيران خصم إقليمي رئيس، وأنها مزعزعة للاستقرار، وشدد على سعيها لحرمان النظام الإيراني من الوصول إلى السلاح النووي وتحييد نفوذه في المنطقة. وتصف الوثيقة، التي صدرت في يونيو العام الماضي، بعد أشهر قليلة على الحرب، أن القوة العسكرية الأمريكية استُخدمت بالفعل ضد برنامجها النووي، وأنها تعتبر إضعاف إيران عنصراً إيجابياً أعاد تشكيل الشرق الأوسط. وتتضح استراتيجية ترامب بتوجهه لتدمير إيران، بينما يركز تصور أوباما على إمكانية احتوائها.

ارتبط ذلك بشكل مباشر أيضاً باستراتيجية الولايات المتحدة تجاه ترتيب العلاقات بين حلفاء الولايات المتحدة في المنطقة. مثلت استراتيجية ترامب لعام 2017 تحولاً واضحاً ارتبط بالصراع الفلسطيني–الإسرائيلي، فاعتبره عقبة أساسية أمام السلام الإقليمي وتحقيق تعاون اقتصادي وسياسي أكبر في مواجهة إيران.

لا يمكن فصل موقف ترامب واستراتيجياته عن تطورات سياسية شهدتها المنطقة في تلك الفترة، يمكن أن تتسبب في تقويض معادلات الصراع التي تسعى واشنطن لإرسائها، وقد تكون أحد أسباب التصعيد الأمريكي ضد إيران. شكل تطور العلاقات الخليجية مع روسيا والصين وإيران في مسارات متوازية بالتزامن، بعد تبني دول الخليج سياسة تنويع الشراكات الدولية، وخفض التوتر مع الجوار، تهديداً لمخططات واشنطن.

لم تخف دول الخليج عدم رغبتها في شن الولايات المتحدة حرباً على إيران، في ظل علمها بواقع المنطقة ومشكلاتها، إلا أن إدارة ترامب ضربت بعرض الحائط مصالح حلفائها، في سبيل مصالحها، معرضة دول المنطقة للخطر.

ويواجه الفلسطينيون أعقد التحديات في حال مواصلة التعويل على واشنطن. لم تتخلَ أي من الإدارات الأمريكية عن التزامها العميق بإسرائيل وأمنها، بينما تخلت تدريجياً عن التزامها تجاه الفلسطينيين.

أشارت استراتيجية أوباما عام 2010 إلى حل دولتين ينهي الاحتلال، وطرحت استراتيجيته في عام 2015 إقامة دولة فلسطين القابلة للحياة، واعتبر بايدن في استراتيجيته لعام 2022 أن الدولة على أساس خطوط عام 1967 مع تبادل متفق عليه للأراضي. وتحدثت استراتيجية ترامب في عام 2017 عن اتفاق يكون مقبولاً لكل من الإسرائيليين والفلسطينيين، وفي عام 2025 وصفت وثيقته الصراع بأنه لا يزال شائكاً.

○ أكاديمية فلسطينية مختصة في العلاقات الدولية.

الالتفاف حول القيادة في زمن التحديات.. مسؤولية وطنية وركيزة دستورية

بقلم:
د. بدر محمد عادل ○

في اللحظات الفاصلة من تاريخ الدول، لا تقاس قوتها بحجم إمكاناتها العسكرية أو الاقتصادية فحسب، وإنما بمدى تماسك جبهتها الداخلية، ووحدة صفها الوطني، وثقة شعبها بقيادتها ومؤسساتها الدستورية. فالأزمات والتهديدات الكبرى لا تختبر قدرات الحكومات وحدها، بل تختبر أيضاً وعي الشعوب وإدراكها أن أمن الوطن واستقراره وسيادته تمثل أولوية تتقدم على كل اعتبار آخر، ومن هنا يصبح الالتفاف حول القيادة في أوقات التحديات مسؤولية وطنية وركيزة دستورية، وصمام أمان يحفظ الدولة ويصون مكتسباتها.

إذ تشهد المنطقة في المرحلة الراهنة تصاعداً في التوترات الإقليمية وتزايداً في التهديدات الأمنية، إلى جانب بروز أنماط جديدة من الصراعات لم تعد تقتصر على المواجهات العسكرية التقليدية، بل امتدت إلى الحروب السيبرانية، وحملات التضليل الإعلامي، واستهداف الوعي المجتمعي، ومحاولات بث الفرقة وإضعاف الثقة بين المواطن ومؤسسات دولته.

وفي ظل هذه المتغيرات، تتعاظم أهمية تماسك الجبهة الداخلية باعتبارها خط الدفاع الأول عن أمن الدولة واستقرارها، ويغدو الالتفاف حول القيادة الوطنية أحد أهم عوامل تعزيز مناعة المجتمع وقدرته على مواجهة مختلف التحديات، وفي مملكة البحرين تتجسد هذه الحقيقة من خلال العلاقة الراسخة بين القيادة والشعب، وهي علاقة تستند إلى الشرعية الدستورية، وإلى تاريخ طويل من التعاون والتلاحم في مواجهة الأزمات، الأمر الذي أسهم في ترسيخ الاستقرار والمحافظة على مسيرة التنمية.

فقد أثبتت القيادة البحرينية، بقيادة حضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة، وبدعم من صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن حمد آل خليفة ولي العهد رئيس مجلس الوزراء، قدرة واضحة على إدارة التحديات برؤية استراتيجية متوازنة تجمع بين حماية الأمن الوطني، وترسيخ دولة القانون، وتعزيز التنمية المستدامة، والحفاظ على السلم الأهلي.

ومن هذا المنطلق، فإن الالتفاف حول القيادة لا يمثل مجرد موقف سياسي تمليه الظروف، وإنما يعبر عن ممارسة مسؤولة للمواطنة، وتجسيد حقيقي للانتماء الوطني، وإدراك بأن الحفاظ على الدولة هو الأساس الذي تصان في ظله الحقوق والحريات، وتحمى المؤسسات، وتستمر مسيرة التنمية.

كما يبعث هذا التلاحم برسالة واضحة إلى الداخل والخارج بأن البحرين تقف موحدة في مواجهة كل ما يمس أمنها أو سيادتها أو وحدتها الوطنية، وقد أكدت التجارب الدولية أن الدول التي نجحت في تجاوز الأزمات الكبرى كانت تلك التي حافظت على وحدة جبهتها الداخلية وأفشلت محاولات استغلال الانقسامات لتحقيق أهداف خارجية، فكلما ازدادت قوة التلاحم بين القيادة والشعب، تراجعت قدرة الأطراف المعادية على التأثير في استقرار الدولة أو النيل من أمنها الوطني، لأن وحدة المجتمع تمثل الركيزة الأساسية لاستمرار الدولة وتعزيز قدرتها على مواجهة المخاطر.

كما أن دعم مؤسسات الدولة، في مقدمتها الأجهزة الأمنية والعسكرية، يعد دعماً لسيادة القانون ولمبدأ حماية المجتمع، فهذه المؤسسات تؤدي واجبها الوطني وفق أحكام الدستور والقانون، وتسهم في حماية الأرواح والممتلكات وصون الأمن والاستقرار، بما يوفر بيئة آمنة لاستمرار النشاط الاقتصادي والاجتماعي ويعزز ثقة المواطنين والمقيمين في مؤسسات الدولة.

وفي المقابل تفرض المرحلة الراهنة مسؤولية مضاعفة على جميع أفراد المجتمع في التعامل الواعي مع المعلومات والأخبار، وعدم الانسياق وراء الشائعات أو حملات التحريض والتضليل، والتحقق من مصادر المعلومات قبل تداولها، لأن الحرب الإعلامية أصبحت من أخطر أدوات استهداف الدول وتقويض تماسكها الداخلي، وهو ما يجعل الوعي المجتمعي أحد أهم مرتكزات الأمن الوطني.

إن الالتفاف حول القيادة البحرينية في هذه المرحلة ليس موقفاً موجهاً ضد أحد، بل هو تعبير عن إرادة وطنية تسعى إلى حماية الدولة وصون سيادتها والحفاظ على أمنها واستقرارها، مع التمسك في الوقت ذاته بمبادئ القانون الدولي، واحترام حسن الجوار، وتغليب الحلول السلمية التي تسهم في ترسيخ الأمن والاستقرار الإقليمي، فإن الالتفاف حول القيادة في زمن التحديات ليس خياراً عابراً، بل هو واجب وطني، وركيزة دستورية، وضمانة أساسية لحفظ الأمن والاستقرار، وترسيخ أسس التنمية، وبناء مستقبل أكثر أمناً وازدهاراً للأجيال القادمة.

○ أستاذ القانون المشارك – رئيس قسم القانون العام –جامعة البحرين.

اتجاهات العروبة والقومية العربية في السينما المصرية

بقلم:
مايسة مصطفي ○

في ذكرى ثورة 23 يوليو، لا يمكن أن نغفل دور القوى الناعمة المصرية المختلفة، التي أظهرت روح العروبة وعززتها حتى من قبل ثورة 1952، وإعلاء النزعة إلى القومية العربية وزعامة الوطن العربي بقيادة جمال عبدالناصر.

في بدايات السينما في العشرينيات، وهي مازالت صامتة، كانت باكورة الإنتاج أفلامًا أطلق عليها النقاد والمؤرخون اسم رومانسيات الصحراء؛ وذلك لأنها مستوحاة من التراث العربي، وخاصة البدوي. عندما أراد صناع السينما في ذلك الوقت إحياء التراث وتصويره على الشاشة الفضية –هذا الفن الوليد الساحر– مثل الأخوين إبراهيم وبدر لاما، والرائدة المنتجة والممثلة والمخرجة عزيزة أمير، قاموا باختيار التراث العربي، فكان فيلم ليلى عام 1927، وقبلة في الصحراء عام 1928.

ثم شهدت السينما المصرية خلال ثلاثينيات القرن العشرين حدثًا مهمًا كان له أثر عظيم على صناعة السينما في مصر، هو تأسيس استوديو مصر على يد طلعت حرب باشا، رائد الاقتصاد المصري الحديث. لم تقتصر رؤيته على إضفاء الطابع المصري على صناعة السينما فحسب، بل شملت أيضًا الحفاظ عليها للأجيال القادمة عن طريق حفظ كل الإنتاج المصري في أرشيف خاص به.

أراد طلعت حرب باشا من المخرجين إبراز عظمة التاريخ العربي، وكان أول إنتاج عام 1936 فيلمًا من التراث العربي بعنوان وداد، وهو فيلم موسيقى مقتبس من قصة رومانسية كتبها عمر الخيام من كتاب ألف ليلة وليلة. كان إنتاجًا ضخمًا في ذلك الوقت، وقامت ببطولته المطربة الآنسة أم كلثوم. وبفضل نجاح هذا الفيلم بشكل منقطع النظير أصبح استوديو مصر الكيان الرائد في مصر خلال أربعينيات القرن العشرين. واستمر إنتاج أفلام التراث العربي، وأنتج استوديو مصر العديد من الأفلام، أهمها فيلم دنانير، الذي أنتج عام 1940، وقامت ببطولته أيضًا كوكب الشرق.

وما لا يعلمه الكثيرون أنه في عام 1941 أنتج الأخوان لاما فيلمًا مهمًا عن السلطان الأيوبي الناصر صلاح الدين، موحد العرب وقاهر الصليبيين، وللأسف ضاعت نسخة الفيلم، قبل الفيلم المشهور الذي أخرجه يوسف شاهين بحوالي 22 عامًا، عام 1963. وقد قام ببطولة فيلم 1941 بدر لاما مع زوجته بدرية رفعت.

واستمرت في الأربعينيات الرغبة في إنتاج أفلام التراث العربي، فقام نيازي مصطفي بإخراج سلسلة أفلام، مثل فيلم ابن الصحراء عام 1942، وفيلم رابحة عام 1943، بطولة زوجته كوكا، التي اشتهرت بأدوارها في هذه النوعية من الأفلام. ثم كان فيلم البدوية الحسناء آخر أفلام بدر لاما، الذي أخرجه عام 1947 قبل وفاته بعام واحد.

وأخيرًا، وليس آخرًا، كيف ننسى كلمات يوسف وهبي الشهيرة في فيلم غرام وانتقام عام 1944، وهو يتحدث إلى أسمهان، التي لعبت دور مغنية مشهورة في هذا الفيلم، وهو ينصحها بعمل أوبريت عن مصر العربية بدلًا من رغبتها في عمل أوبريت عن مصر الفرعونية، ويقول لها: مصر الآن هي عربية الثقافة.

إذا أردنا تحليل الأسباب وراء هذه العروبة السينمائية في فترة ما قبل ثورة 1952، فهي ترجع إلى أسباب عدة؛ منها أسباب شخصية لأصحاب الأفلام، ولكن الأهم أسباب اجتماعية وسياسية حقيقية عاشتها الشعوب العربية.

بالنسبة إلى السبب الأول، فهو يرجع إلى رؤى صانعي الأفلام أنفسهم. فعلى سبيل المثال، قدم الأخوان لاما إلى مصر من تشيلي، بعد إقامة فترة في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد تأثرا بالنجاح الباهر لسلسلة أفلام الشيخ، التي قام ببطولتها الممثل الأمريكي الوسيم الشهير رودولف فالنتينو خلال أوائل عشرينيات القرن الماضي. وقد تشابهت المشاهد في الإطار والأزياء والهيئة الجسدية للأبطال بين الأفلام الأمريكية والمصرية على حد سواء.

أما السبب الثاني لاختيار موضوع التراث العربي فهو سبب اجتماعي، ألا وهو شغف المصريين بقصص البدو والقصص العربية. ويعود هذا الشغف إلى فن رواية القصص الشعبية القديم في مصر، الذي يؤديه الراوي. وقد اشتهر هذا الفن منذ القرن الرابع عشر، وكان موضوعه الرئيسي ملحمة السيرة الهلالية.

وقد رواها الشعراء، الذين كانوا يُنشدون الأبيات مصحوبة بموسيقى تُعزف على آلة الربابة. وكانت هذه الرواية تُقام في الريف خلال الاحتفالات الاجتماعية، كالأعراس وحفلات الختان والتجمعات العائلية. أما في المدن، فكانت المصدر الرئيسي للترفيه قبل اختراع الراديو والسينما، حيث كانت تُعرض في المقاهي الشعبية ومنازل الأثرياء. وإلى جانب ملحمة السيرة الهلالية، كانت هناك ملحمة عربية أخرى من التاريخ العربي لاقت استحسانًا كبيرًا من الجمهور، هي عنترة بن شداد.

لذا، كان من المنطقي مواصلة هذا التراث العربي بعد ظهور السينما، التي تُعتبر شكلا آخر من أشكال سرد القصص، ولكن بتقنيات بصرية حديثة.

أما السبب الثالث لاختيار موضوع التراث العربي فكان سببًا تقنيًا، هو سهولة خلق بيئة بدوية صحراوية في صناعة الفيلم، وتقليل ميزانية الفيلم، وخاصة مع وجود معدات ثقيلة في عصر بدايات السينما. فعلى سبيل المثال، لا يزال البدو المعاصرون يرتدون الأزياء والأنماط التقليدية، كما أن استخدام الجمال –وهي وسيلة النقل نفسها في الصحراء– كان شائعًا منذ مئات السنين حتى يومنا هذا. وأخيرًا، سهولة الوصول إلى مواقع التصوير الصحراوية، التي لا تبعد سوى بضعة كيلومترات عن الاستوديوهات والمدينة على حد سواء.

أخيرًا، كان السبب الرابع والأهم سياسيًا هو النزعة السياسية المصرية نحو القومية العربية. وقد برزت هذه القومية بشكل عفوي عشية انهيار الإمبراطورية العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وكانت بمثابة رد فعل على تتريك كمال أتاتورك في تركيا والبلاد التابعة لها من جهة –أي تغيير اللغة من العربية إلى التركية– وحركات التبشير والاستعمار الجديد من جهة أخرى. فقد احتل الإنجليز مصر عام 1882، ثم السودان، كما احتلت فرنسا الجزائر عام 1830، وتونس عام 1881، وفرضت الحماية على مراكش عام 1912، كما احتلت إيطاليا ليبيا عام 1911.

كان حكام مصر أول من دعموا بقوة الاتجاه إلى القومية العربية في تلك الأثناء، مثل الملك فؤاد (1936–1917)، ومن بعده ابنه الملك فاروق (1952–1936). والحقيقة أنهم تمنوا –كما يقال– أن يضربوا عصفورين بحجر واحد؛ فمن ناحية أرادوا التخلص من السلطة الإنجليزية، ومن ناحية أخرى إعلان أنفسهم، وخاصة الملك فاروق، سلطانًا جديدًا للعرب.

ولكن، مع الأسف، واجهت القومية بعد الحرب العالمية الأولى أحداثًا خطيرة وكبيرة فرضها الاستعمار الأوروبي، مثل اتفاقية سايكس–بيكو، التي تمت عام 1916، والبدء في تنفيذ وعد بلفور عام 1917، الذي كان يهدف إلى منح اليهود وطنًا قوميًا في دولة عربية على أرض فلسطين. وقد تمثل رد الفعل العربي في تمجيد العروبة، والتمسك باللغة العربية، ورفض هيمنة السلطات الأجنبية، والاعتزاز بالتاريخ والفن والأدب العربي، أو بمعنى آخر التراث العربي. ومن ثم كانت السينما، هذا الفن الناشئ حديثًا، أحد تجليات هذا الاتجاه السياسي.

وهكذا، ونحن نتطلع إلى إحياء الحلم العربي، كان لا بد من هذه الإشارة لما فعلته السينما في النصف الأول من القرن العشرين، بما يؤكد أن مصر ستظل دائمًا وأبدًا قلب العروبة النابض بالحياة والثقافة والفن.

○ باحثة في الثقافة والتراث.

التمسك بالهوية العربية في ظل صراعات المنطقة

بقلم: باسم برهوم ○

في منطقة كالشرق الأوسط عليك أن تقلب الاحتمالات كل يوم مع قهوة الصباح، وغالبا ما تسقط رغباتك على احتمالاتك، فإما أن تنتصر أو تبرر للطرف الذي تميل اليه. أو تسقط عليها مزاجك فتكون الأمور قاتمة أو كشروق الشمس في يوم ربيعي.

والأكثر غرابة، وهو السائد أن تجعل الخبر اليومي يتحكم بعقلك صعودا وهبوطا كبورصة وول ستريت. المستشرقون والاستعماريون الذين جاءوا للمنطقة قبل الحرب العالمية الأولى، قبل سايكس بيكو، وصفوا الناس في منطقتنا بأوصاف فوقية استعلائية هدفها زرع الإحباط في نفوسنا ومن بين هؤلاء الاستعماريين سايكس نفسه، أما من جاء منهم بعد التجزئة وصفوا الناس بأنهم متقلبون ولا يستقرون على رأي وتتحكم بهم عواطفهم، ولم يتحدث المستشرقون عن الانقلاب والزلزال الكبير الذي أصاب المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى وجعل سكانها هكذا.

هل مازال أغلب المواطنين العرب في مربع البحث عن الهوية؟ لقد اعتقد العرب انهم بعد نكبة فلسطين عام 1948 قد استعادوا هويتهم، أو أن هناك هوية توحدهم، بعد أن أصابت الهزيمة المدوية المشاريع القطرية الوطنية الناشئة، وأصابت فكرة الجامعة العربية، التي كانت تأسست لتقود العرب تدريجيا نحو الوحدة. الاعتقاد بأننا استعدنا الهوية، تعزز مع ثورة الضباط الأحرار في مصر في 23 يوليو 1952، وصعود المشروع القومي الوحدوي مع الزعيم جمال عبد الناصر.

ولكن مع الهزائم المتكررة، عدنا إلى النقطة صفر، نقطة البحث عن هوية، لذلك نحن في لحظة نأمل فيها ان يأتي المنقذ من خارجنا. لحظة نسقط فيها أكثر رغباتنا، لحظة من عدم اليقين، لذلك نحن في الغالب لا نصلح لقراءة فنجان الاحتمالات الصباحي، غير قادرين على امتلاك منهج لتوقع الاحتمالات، وغالبا ما نكمل يومنا ونحن نردد مقولة إننا في منطقة متقلبة، منطقة الرمال فيها متحركة.

البداية لفهم الواقع علينا ان نجري استطلاعا للرأي في فلسطين مثلا، للإجابة عن سؤال هل انت فلسطيني أولا؟ أم عربي أو مسلم أو مسيحي أولا؟ والسؤال نفسه في سوريا والأردن ولبنان ومصر وغيرها من الدول. وبهدف تقريب الفكرة، لو توجهنا بالسؤال إلى اللبنانيين لكانت الإجابات على الأغلب أنا ماروني أولا أو أنا شيعي، أو أنا مسلم سني، أو مسيحي أرثوذكسي، وتأتي الهوية الوطنية ثانيا، أما الهوية العربية فهي إشكالية أخرى.

هناك من يعتقد أننا في فلسطين لا نعيش المشكلة ذاتها، ولكن إذا سألت فلسطينيا عضوا في حركة «حماس» أو «الجهاد» وحتى مواطنين عاديين، فعلى الأغلب ستكون إجابته عقائدية إلى حد كبير، المقصود هنا ليس ان نقرر أي الهويات هي الاهم، إنما أن نلاحظ ان الاحتمالات تلد في المنطقة من الرغبات أكثر منها انطلاقا من منهج تفكير علمي.

وربما بشكل أدق، إن عدم القدرة على فهم الاحتمالات ناجم من غياب تحديد الهوية، وهذا لا يعني ان الهوية وحدها تكفي لجعل صاحبها قارئا جيدا للاحتمالات، فالاحتمالات مسألة موضوعية لا يمكن قراءتها بالعواطف والغرائز، لذلك يشعر العقلانيون في المجتمعات العربية بالعزلة.

لنعد إلى الحدث الراهن الذي يشغل كل الاهتمامات، وهو الحرب الأمريكية الإسرائيلية مع إيران، وما نجم عنها من اتفاق مؤقت وغالبا ما تسقط رغباتنا كلمة مؤقت. وتعطيه صفة الإطلاق، ونقرر المنتصر والمهزوم، لكن كلمة مؤقت تعني وجود الاحتمالات المفتوحة. هناك مشكلة، هي اننا نبحث بين الاخبار والآراء عمّا يعزز رغباتنا، وليس ان نقرأ بطريقة موضوعية، ومن ثم تتعزز فينا الغريزة.

في الحالة الفلسطينية، هناك نقطة مركزية أن يبدأ الشخص من تحديد هويته بدقة ويقول «أنا فلسطيني»، فإذا حدد هويته بهذه الطريقة يمكنه ان يحدد بشكل معقول أكثر ماذا يريد، وأن يحدد اهدافه بدقة، ومصالحه، وكذلك يحدد سياساته، ورؤاه، وأي مسلك سياسي يخدم أكثر مصالحه بدقة، ومن ثم تأتي الهوية القومية العربية التي يجب التمسك بها بقوة، لأن ما يربطك بالسوري أو اللبناني مهما كان دينه هو الهوية العربية.

○كاتب من فلسطين.